الصحفيون في يومهم ..

ذابـوا ليسقـوا النـاس مـن مهجاتهـم

وزير الإعلام عبد الله سلوم السامرائي يكرّم الصحفية مريم نرمة (جالسة) لمناسبة عيد الصحافة الأول ١٩٦٩ ويظهر حسن العلوي (واقفاً) بجانبه الأيسر.

في يوم الصحافة العراقية نرفع الشكر للّه الذي أمدّ بأجلنا إلى العام الثالث والأربعين بعد احتفالنا الأول بمئوية الصحافة العراقية في عام 1969 .. ولعله مقطعٌ من هذا التاريخ الجليل أن أدلي بشهادتي عن الصحفي العراقي والصحافة العراقية .. ففي العودة إلى الاحتفال بمئوية الصحافة العراقية كنت يومذاك أواصل الكتابة في عمود صحفي .. بينما كانت وظيفتي مديراً للصحافة في وزارة الثقافة والإعلام .. عندها داهمتنا فكرة إقامة يوم للصحفيين أسوة بيوم العمال مثلاً ، وكنت واحداً من خمسة صحفيين على رأسهم عميدُ الصحافة العراقية وزاهُدها (سجاد الغازي) ونظيُره (فائق بطي) .. وضياء حسن .. وشارك آخرون ممن رحلوا ولم يتركوا لأبنائهم ما يقيمون به مجلس فاتحة على أرواحهم الطاهرة .. كالصحفي الأديب عبد الوهاب الأمين والصحفي المتعب دائماً محمد حامد وعبد اللطيف حبيب وهاشم النعيمي .. وهادي الأنصاري .. وصادق الأزدي .. وصبيح الغافقي .. ومنير رزوق .. وعبد المنعم الجادر وإبراهيم إسماعيل ، أما الشاعر الأديب شاذل طاقة فقد اعتبر محاولة الاحتفال هذه فرصة لتجميع الوطنيين العراقيين الذين أكلت الحروف أيامهم .. وقد آن الأوان للاعتراف بفضلهم .. وإن الحياة بتعبير الجواهري : نهارٌ وليلٌ يوسعان بنا أكلا ..

حسن العلوي ×

واستقرّ الرأي على يوم الخامس عشر من حزيران حيث صدر العدد الأول من جريدة الزوراء التي أسسها الوالي مدحت باشا ،وإن كان رجلُ القانون ووجهُ الشاشة طارق حرب قد انفرد قبل أيام برأي ينكر فيه هذا التاريخ لأن الزوراء في رأيه لم تكن صحيفة عراقية بل تركية وأنها أخذت اسم زوراء وليس الزوراء .. وردُّ الإنكار على المحامي حرب هو أن تاريخ العراق يتصل بموقعه واسمه الجغرافي والتاريخي وإن كان ولاية عثمانية .. وإلا فيمكن أن ننكر أيضا أن تكون مجلة لغة العرب عراقية .. وجريدة العراق عراقية .. لأنهما صدرتا في زمن الاحتلال البريطاني للعراق بعد الحرب العالمية الأولى ..

أما نزع ألف لام التعريف فيخضع لقواعد اللغات التي لا تحتاج إلى هذه الأداة وتعتبر الاسم معرفاً بدونهما كالفارسية و الكردية والتركية .. وهي السنّة التي جرى عليها مؤخراً أصحاب ومؤسسو مطبوعات مثل مجلتي دراسات عربية و آفاق عربية .. حتى كادت الأسماء الجديدة تخلو من الـ التعريف و كذا الحال أيضا في عناوين الكتب الصادرة حديثاً .

وبالعودة إلى أيام الإعداد لهذه المناسبة أي عيد الصحافة العراقية الأول عام ١٩٦٩.. فقد اكتشفنا أنّ مراكز الوثائق والمكتبة الوطنية تخلو نهائياً من نسخة العدد الأول لجريدة الزوراء.. ولهذا لم تُنشر صورة العدد الأول حتى أيام قبيل يوم الاحتفال .. ولهذا الأمر حكاية أذكرها هنا .. إذ زارني رجل كان لوالده أرشيف صحفيٌ عامر واسمُ الرجل (بديع) ولا أتذكر اسم والده ..فقدم لي النسخة باعتباري مقرر اللجنة الوطنية للاحتفال بعيد الصحافة العراقية .. فاتصلت بالصديق حلمي شريف رئيس تحرير جريدة النور وهي الوحيدة التي كانت تصدر خارج الإعلام الحكومي حينذاك وكانت تابعة لمجموعة الأستاذ جلال طالباني .. وأذكر أن الأخ بديع رفض أن يتسلم أية مكافأة مقابل تزويدنا بهذه التحفة النادرة لكني عوضت له ذلك بإبراز اسمه أولاً عندما نشر خبر العثور على النسخة مصوراً في الصفحة الأخيرة من جريدة النور، ثم شرعت الصحف العراقية الأخرى بنقل صورة العدد الأول لجريدة الزوراء عنها .... وتلقيت في اليوم الثاني لوماً شديداً من قبل الوزير عبد الله سلوم السامرائي لكوني فضلت جريدة خاصة على جريدة الحزب والدولة .. ولعل هذه الحادثة تعطي مؤشراً مبكراً عن تفضيلي الصحافة الخاصة على صحافة الدولة حتى صنفت يوماً بكوني من الليبراليين حسب وجهة نظر الأخ كمال عبد الله الحديثي الذي حاول في أحد الاجتماعات الحزبية وبحضور صدام حسين النيل مني باعتباري ليبرالياً خارجاً على منهاج الإعلام آنذاك .. واعتبر صدام حسين ما صدر عن كمال الحديثي شتيمةً فوجه كلامه للدكتور سعدون حمادي لكي يشرح لكمال الحديثي معنى مصطلح الليبرالية .

ومن المؤسف في تلك المناسبة أي مناسبة الاحتفال الأول بعيد الصحافة العراقية عام ١٩٦٩ .. أن تلاعباً حدث في تسمية أقدم صحفي عراقي مازال على قيد الحياة لتكريمه عندما اختير السياسي العراقي الشجاع محمود رامز الذي كان باعه في السياسة باعتباره من الوطنيين الأوائل أعلى مقاماً من أي دور صحفي له .. فيما اختيرت السيدة (مريم نرمة) من أجل تكريمها باعتبارها أقدم صحفية عراقية تصدر مجلة نسوية ولم يكن لها دور في هذه المجلة سوى اسمها كصاحبة الامتياز .. وإن هذه السيدة الجليلة لم تكن لها علاقة بالصحافة وليس لها قدرة على الكتابة أيضا .. وأذكر أنني لم أحصل منها بعد جهد على رسالة بهذه المناسبة قبل ظهورنا في تلفزيون بغداد ساعة تكريمها وكنت حينها أقف إلى جانب وزير الثقافة والإعلام المرحوم عبد الله سلوم السامرائي .

وبرأيي فإن (أبا رامز) سلمان الصفواني وليس محمود رامز هو الأقدم وإن لم يكن هو الأسنّ .. فقد رافق ظهوره صحفياً ظهور المملكة العراقية عام ١٩٢١ .. وظل ملتزماً بخطه القومي العربي منذ أن غادر مسقط رأسه في قرية صفوى بالقطيف حاملاً لقب سلمان القطيفي .. قبل أن ينتبه إلى أن قرية صفوى أولى بابنها فحمل اسمها .. ومنذ الأسبوع الأول لثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ بدأت أكتب مقالتي القومية في جريدة اليقظة التي كانت تصدر مساء كل يوم وأول مقال نشرته فيها كان بعنوان (الخبز والحرية) .. وباعتقادي فإن إبعاد الصفواني عن هذا اللقب يعود لكونه ناصرياً وليس لسبب آخر. كما أن الأمر ليس صعباً لتفهم أن إقصاء أول جامعية في العراق صبيحة الشيخ داود عن لقب الصحفية الأولى كانت لكونها محسوبة على العهد الملكي .

والغريب في الصحفيين العراقيين المؤسسين منذ العهد العثماني أنهم كانوا مصداقاً للنظرية القائلة بأن الحرف حرفة الفقراء .. والصحفيون في العراق قسمان : صحفي محترف ليس له الكثير من العمق الثقافي وعنده الكثير من الحرفة والإخلاص والكدح في هذه المهنة .. وآخر موغل في عالم الثقافة والأدب والشعر لكنه لا يمتلك حرفة الصحفي .. وحتى هذا القسم فقد ترعرع اسمه ونمت شخصيته بين أعمدة الصحافة التي يشرف عليها الصنف الأول المعروف بعدم امتلاكه أدوات المعرفة المتوفرة عند الصنف الثاني .. وإن كان بعض المثقفين يتسامى أمام الصحفيين باعتباره من طبقة أعلى فينكر لقب الصحفي إذا ما لقب به وهو ماكان ليكون شيئاً لولا الصحافة التي كانت سبباً في شهرة المثقف والسياسي والفنان والمغني .. وبقي الحال هكذا سنوات إلى أن دخل عالم الصحافة مثقفون قادمون من الأحزاب ،كالحزب الوطني الديمقراطي والحزب الشيوعي وحزب الاستقلال ولم يكن معظم هؤلاء حرفيين قبل أن تتشكل مجموعات قادمة من اليسار الوطني وتحترف الصحافة فيصبح الصحفي المهني هو ذاته المثقف الوطني والشاعر والأديب .. وكانت إسهامات الشيوعيين هي الأبرز منذ ذلك الحين .. وبرز صادق الصائغ ومحمد كامل عارف وسعود الناصري وسلوى زكو وأخريات ، وآخرون .

أما الدولة ملكية أم جمهورية .. قاسمية أم عارفية .. بكرية أم صدامية .. فعينها كانت على الصحفيين العرب الذين تعتقد أنها تقاتل بهم فأقامت مؤسسات عالية القمم وواطئة الذمم في بيروت ولندن وباريس تاركة أهل الصحافة العراقية بين المقال والاعتقال .. وشظف العيش والحاجة للسكن .. لكنهم غذّوا السير فيما أموالنا تذهب هدراً لأصحاب صحف ومطبوعات سرعان ما تنقلب على الدولة في لحظة الانقلاب عليها .. منذ ذلك الوقت كنت أرفع شعار الاهتمام بالصحفي العراقي .. وحتى لا يكون الكلام لغواً لا دليل عليه أسرد لكم حكاية مقال كتبته في العدد ٥٥٤ من مجلة ألف باء الصادر في التاسع من مايس ١٩٧٩ .. وذلك بعد اطلاعي على عقد لوزارة الإعلام العراقية مع صحفي لبناني يقيم في أوروبا لتمويل إصدار مطبوع له .. وقد تعهد العقد بنقل كذا ألف نسخة من مطبوعه إلى العراق عبر الخطوط الجوية العراقية مجاناً وأن تعتبر جميع الأعداد المرسلة إلى العراق مبيعة أي بلا (مراجيع) وتحويل أثمانها بالعملة الصعبة وأن يخصص له مبلغ ٢٠٠ ألف دولار سنوياً مع إعلانات حكومية لا تقلّ عن خمس صفحات لكل عدد .. وبالمقابل كانت حصة ابن الصحفي العراقي من تقاعد أبيه لا تتجاوز ٧ دنانير شهرياً .. فحملت العقد إلى صديق الدهر (سجاد الغازي) مع مقال افتتاحي عن هذا الموضوع أعددته للمجلة بعنوان (سوق الكلام الفاسد) .. فنصحني بتمزيق المقال حرصاً على بقائي صلة للوصل بين هذه الدولة والصحفيين أمثاله .. لكنني لم أنتصح .. ونشرت المقال كما كتبته .. وهو وثيقة لإدانة نهج حكومي يفقر الصحفي العراقي ويجيع أطفاله فضلاً عن سياسة الكبت على حريته وإرادته .. وليت الأمر قد توقف عند هذه الحدود .. فإن صفوة من الصحفيين قدموا حياتهم ثمناً للدفاع عن قضايا شعبهم بعد أن سجل العراق رقماً قياسياً للبلد الذي يقتل فيه الصحفيون صبراً وعلى الجوع .. ويتعرض صحفيون في مؤسسات إعلامية بعضها يعود لغير عراقيين .. وبعضها مجهول النسب إلى طرد كيفي من دون إنذار متجاوزةً حقوق العمل الصحفي وقوانينه المصادق عليها .. وإلى جانب ذلك فإن ما يدعو للفخر والدهشة أن الصحفيين العراقيين قد تقبلوا الانتقال إلى الصحافة الحرة بعد العام ٢٠٠٣ وكأنهم كانوا يعدون أنفسهم لمثل هذا اليوم، فظهرت مؤسسات صحفية وتلفزيونية .. وكتابات ومهارات .. كأنها عاشت عقودها الخاوية في مرتع الحرية والليبرالية .. وأصبحت الصحافة العراقية بوسائلها المختلفة قوة أساسية توازي نظيراتها في العالم المتقدم من حيث رصد الفساد ومتابعة الفاسدين وتأشير مواقع الضعف والخلل والإهمال في النظام القائم .. وكان المفروض أن تستفيد الدولة الحالية من هذه الكشوفات المخلصة لكي تعالج بروح المشاركة وليس باعتبارها مؤسسات للثأر والانتقام والتشهير من المؤسسة الصحفية التي تنهض بمسؤوليتها هذه .. ومن المعيب على دولة نفطية انتقلت إلى مرحلة الحرية واحترام الذات أن لا توفر للصحفيين الذين دفعتهم ظروف القهر إلى الهجرة سقوفاً يؤون إليها ومعاشاً يسد رمق أبنائهم وقد بلغت الشيخوخة منهم مبلغاً وهم في أقاصي الدنيا وتحت وطأة الثلج والغربة ،في الطليعة منهم فلاح العماري والصحفي الشاعر يحيى السماوي وسعيد الربيعي الذي ينتعل خفّ المطاط مشياً على قدميه فيأتي بالخبر الذي لا يصل إليه الضالعون في أسرار الدولة والمجتمع .. وليس أمام هؤلاء وأمامي سوى أن نمنّي النفس بقول شاعرنا المتنبي الخالد :

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا ... أن لا تفارقهم فالراحلون همو

أما (محسن حسين) مؤسس وكالة الأنباء العراقية ومديرها الفعلي .. والعصامي المجهول .. والمغترب في آخر الشيخوخة فإن راتب زوجته الإعلامية نوال الوائلي بعد ربع قرن من العمل الإعلامي والصحفي أيها الرئيس طالباني وأنت العضو المؤسس في نقابة الصحفيين الأولى .. هو الآن ٥٠٠ دينار عراقي أي أقل من نصف دولار أمريكي .. فأي عار يعرّينا .. وأي عيب يخجلنا نحن الذين انتمينا إلى هذه الطبقة السياسية ونحن نقف عاجزين عن رفع الغبن المخزي عن رواد الصحافة العراقية .

وستخف الدهشة إذ نعلن أن الدولة العراقية التي ينفجر من أرضها ثراء النفط .. والتي تبلغ ميزانيتها مئة مليار دولار سنوياً مازالت عند قوانين تقاعدية تعطي لعميد الصحافة وشيخها الأنقى والأرقى (سجاد الغازي) .. ٥٠٠ دينار شهرياً أي أقل من نصف دولار ! إلى جانب مئة صحفي من المتوفين الذين خصص لعائلة كل منهم أقل من نصف دولار شهرياً أيضا .. كما أن هناك ٣٢ صحفياً على قيد الحياة كما أعلم حتى نهاية العام ٢٠١١ وهم من شيوخ الصحافة وروادها مشمولون بهذا القانون الذي لم يحرك الضمير الإنساني أو الوطني أو المهني لهذه الطبقة السياسية التي تمنح نصف دولار شهرياً لسجاد الغازي ويوسف هرمز وحميد المطبعي وحليم الأعرجي وسهيل نادر وسعيد الربيعي وجرجيس ميخائيل عبد النور و سعود الناصري وزملاء لم يتسنّ لنا استذكار أسمائهم .. وهم في آخر العمر بعد ستين عاماً من صناعة الحرف والخبر .

أقل من نصف دولار ولا حياء لهذا النظام راتباً لأكثر من مئة وثلاثين شيخاً من شيوخ الصحافة في دولة تغمض عينيها عن اختلاس وزير واحد فيها لمليار ومئتي مليون دولار .. لا ينافسه في الفساد إلا زميله في ذات الوزارة .. وفي دولة يعلن وزير كهربائها أن عشرين مليار دولار أنفقت على الكهرباء والناس تشوى وجوه أطفالهم في درجة حرارة فوق ما يتحمل البشر .. فإذا كان لأحد أن ينتفض في يوم الصحافة فهم بقايا من يحمل الضمير الصحفي وهم مازالوا الأكثرية.

وإذا كانت وزارة الثقافة عاجزة الميزانية أو عاجزة الأثر والتأثير وهي المسؤولة الآن عن هذه الحقوق فعجبي للجنة الثقافة والإعلام في البرلمان كيف سكتت عن ضيم يضرب كرامة الثقافة والإعلام في الصميم ؟!

وأخيراً ففي العيد الثالث والأربعين بعد المئة ينبغي رفع الصوت لإيقاف الهدر بالإنفاق على مؤسسات إعلامية حكومية تصدر ونحن تحت خيمة دستور ليبرالي لا يجيز للدولة استخدام أموال الناس لشراء الذمم وتغييب الرأي وكأننا في نظام شمولي من تلك التي أصبحت خلف التاريخ.. كما أن سلطة الإعلام في مواجهة سلطة الدولة هي الشعار الذي ينبغي أن يطرح ويعزز بعد أن أخذ سياسيون أميون مواقع متقدمة في الدولة .. وصار مطلوباً في عرفهم أن يكون الصحفي تابعاً بصفة مستشار يبرر لهذا الجاهل ما صدر عن جهله .. ولهذا العاق ما صدر من عقوقه تجاه الناس والبلد .. وأمامنا في الختام نصٌ جواهريٌ يوجز دور صانعي الحروف حينما قال في سلطة المثقف:

نحن الجبابرةُ الأعلون يَرهَبُنا
إذ يُرهقِ الناس فرعونٌ وجبّارُ
عن كل حرفٍ دفعنا فديةً فدحت
لو كان للحقِ ميزانٌ وأسعار

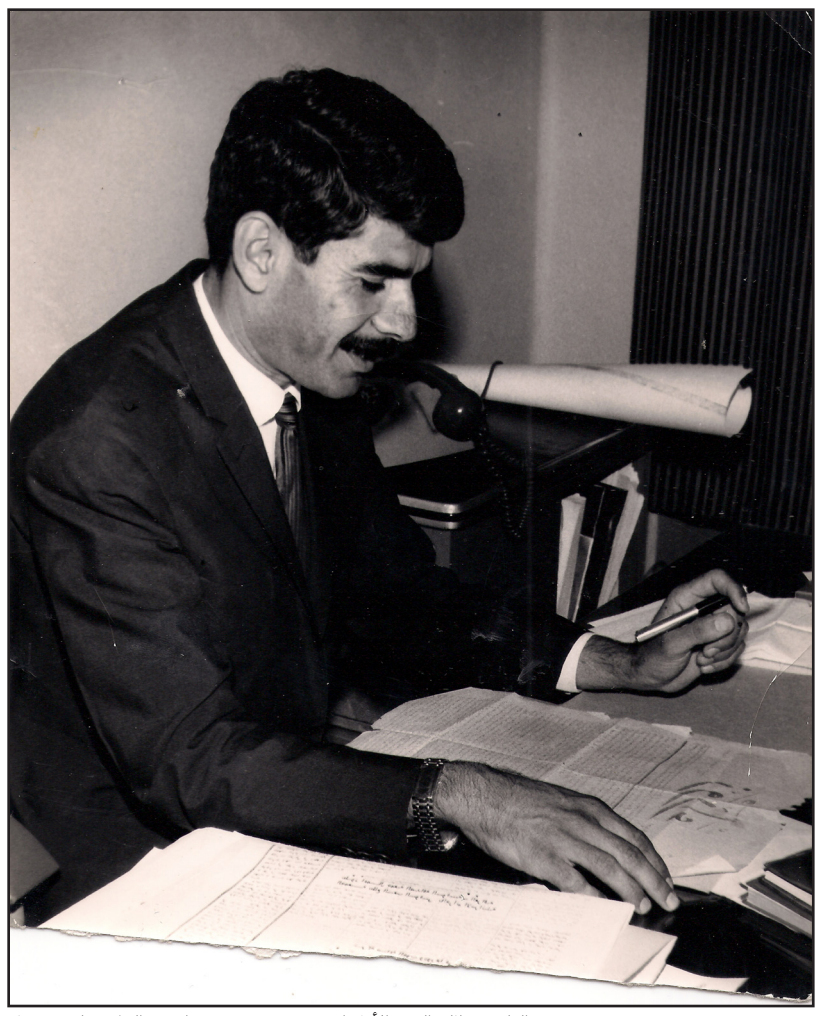

حسن العلوي يطالع العدد الأول المفقود من جريدة زوراء بعد العثور عليه ١٩٦٩.

×العضو المؤسس لنقابة الصحفيين العراقيين ومقرّر لجنة الاحتفال الأول بمئوية الصحافة العراقية عام ١٩٦٩